(٧)

المرأة في عالم متغير

(دراسة أولية)

على قدر مكانة المرأة واحترامها يكون رُقيّ المجتمع

(المؤلف)

منذ قديم الزمان وحتى اليوم لايزال جِنْس المولود يُكتشف عادة بالنظر إليه عارياً توّ ولادته (١) ، فيكون إما ذكراً أو أنثى ، واعتماداً على ذلك يتعين أسلوب تنشئته ، والإسم الذي سيحمله ، والعالم الذي سينتمي إليه هذا المولود منذ لحظة ميلاده حتى وفاته ؛ فالذكر ولد ومستقبله عالم الرجال ، والأنثى بنت ومستقبلها عالم النساء . وعلى الرغم من أن هذين العالمين يشكلان وحدة إنسانية مشتركة ، إذ إن الرجل والمرأة كلاهما إنسان ، إلا أن الرجال والنساء جدٌ مختلفون حيث إن لكل منهم خصائصه الجسمية الفطرية ، كما أن لكل منهم أيضاً ثقافته المكتسبة . والجدير بالذكر هنا أن ثنائية نوع أفراد البشر (٢) – ممثلة في الرجل والمرأة – لاتنفي مطلقاً واقع اشتراكهما معاً في كل أمور الحياة ، كما لاتلغي أبداً وحدة مهمتهما في الانتشار والإعمار . فالتباين القائم بين الرجل والمرأة في شكل البدن ، وطبيعة الفكر وأسلوب الفعل لاغضاضة فيه ، ولا ضرر منه بأية حال بل إن أحدهما – في رأينا – يُكمّل الآخر ، ويُيسر تعاونهما طريق الحياة ويّذلل من صعوبتها ومشقتها ، كما يحقق لهما الوجود وحكمته ، فالنساء شقائق للرجال كما ورد في الحديث الشريف .

إن السؤال الذي يطرحه – في الوقت الراهن – أهل الفكر والفقه لايخص طبيعة الاختلاف بين الرجل والمرأة طبيعياً ونفسياً واجتماعياً وثقافياً فحسب ، وإنما يتصل أيضاً بالتقارب أو التباعد بين الرجل والمرأة وطبيعة العلاقات بينهما وتأثير ذلك على مسار الإنسانية في حاضرها ومستقبلها ، بمعنى أنه – يحق لنا – ونحن نخطط للعصر القادم بحلول الألفية الثالثة من التاريخ الميلادي للإنسان أن نتساءل هل سيظل هذا الصراع الأبدي بين الجنسين (أي الرجل والمرأة) ، أم أن التحولات الجذرية والتغيرات السريعة والأحداث المتوالية التي يشهدها عالمنا المعاصر في كافة الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتقنية ، سيجبر الطرفان على المصالحة والعمل على العيش في سلام من خلال تفهم الواحد للآخر ، وفتح العقول والقلوب معاً . ونظراً لأن فهم الذات لايتحقق دون معرفة الآخر من وجهة النظر الإسلامية (والأنثروبولوجية أيضاً) ، فإن السلام غالباً ما يتعذر إحلاله دون تحقيق قدر من التكافؤ الإنساني والقيمي – على الأقل – بين الذات والآخر . ذلك بالإضافة إلى العمل الدءوب على تقريب تلك المسافة الشاسعة التي تفصل بين عالمي الرجل والمرأة ، والتي وصفها "جون جاري" (John Gary) – أستاذ التحليل النفسي الأمريكي – أنها أشبه بالبعد الهائل الذي يفصل بين كوكبي المريخ والزهرة (٣) .

وفي إطلالتنا التاريخية الموجزة جداً في هذا العرض على مكانة المرأة عبر العصور ندرك على التوّ أن المعرفة بالمرأة وعالمها عبر التاريخ كان مصدرها الرجل غالباً ، وحتى عهد قريب جداً . فلقد شغلت المرأة فكر الرجل منذ أن تواجدا سوياً وعاشا على سطح كوكبهما الأرض . فهي منذ الأزل شريكته في الانتشار والإعمار ، وهي أيضاً رفيقته عندما يرتحل وأينما يحلّ . بالإضافة إلى ذلك نجد المرأة ماثلة في خيال الرجل كما هي في واقعه ، فصورها على جدران الكهوف

والمعابد على النحو الذي يريده لها ، ومن منطلق تصوره لدورها الذي تؤهله له طبيعتها . وفي هذا الإطار صنع رجل الحضارات القديمة من المرأة إلهة له ، فأشهر الإلهات القديمة هي الإلهة الأم ، الأرض ، رمز الخصب والمعبودة الأولى التي عُرفت عند اليمنيين باسم "عشتر" وعند البابليين "عشتار" ، وعند المصريين القدماء "إيزيس" ، وعند الإغريق "جيا" إلهة الأرض ، و"أفروديت" إلهة الخصب والجمال . وكان القمر في أول أمره – عند غير العرب – أنثى ، كما صُور بثلاثة وجوه : هلالاً ، وبدراً ، ومحاقاً ، ويرمز الوجه الأول إلى الأنثى الشابة ، والوجه الثاني إلى المرأة الناضجة ، أما الوجه الثالث فهو للمرأة العجوز . (٤)

ليس هذا فحسب ، فقد أنشد الرجل في حضارات العصور القديمة الأناشيد الحُلوة للمرأة ، كما نسج حولها الملاحم والأساطير . فالمرأة في الملحمة البابلية الشهيرة " جلجاميش " تشكل شخصية رئيسة ، فهي الإلهة " ننسون " ذات المعرفة والعالمة بكل شيء والمتبحرة في العرفان . ولأن الحضارات الفرعونية والرافدية والكنعانية تتشابه إلى حدٍ كبير ، فإننا نجد إبتهالات مشتركة بينها يُلاحظ فيها ارتباط المرأة بالأرض ، وكما جاء هذا النص مخاطباً المرأة : " أيتها الثمرة التي خلقت نفسها ، لاحدود لعظمتك ، أنت الأم التي ولدت كل شيء ، أنت الأب الرحوم المملوء بالطيبة ، يدك تمسك حياة العالم أجمع " .(٥) وتذكر الباحثة منار فتح الباب في مقالها عن المرأة في العصور القديمة " أن الفن الفرعوني قد أجاد التعبير عن المرأة بشكل فائق الوصف ، فقد ظهرت المرأة بشكل ينم عن تقدير المصري القديم للجمال ، واحترامه للمرأة ولدورها في الحياة ، فنموذج تصورها في اللوحات نموذج فريد من حيث شفافية الرؤية وعمقها وعذوبتها " . (٦) وفي رأينا أيضاً ، أن الفن المصري القديم قد أبرز بوضوح رمزية الصلة بين المرأة والأرض والخصوبة . (٧)

ولنكتفي بهذه الإشارات الإيضاحية لمكانة المرأة في بعض الحضارات الشرقية القديمة ، ولننتقل إلى الحضارة الغربية بدءاً من عصر اليونان. وهنا نجد اختلافاً بيّناً بين نظرة الشرق ونظرة الغرب إلى المرأة . فمكانة المرأة عند اليونانيين القدامى عكست مجتمع الرق ، الأمر الذي جعل مشاهير فلاسفتهم يسايرون فكر عصرهم في انقاص قيمة المرأة واعتبارها مجرد جسد للمتعة الجنسية والخدمة المنزلية . وإذا كان فلاسفة اليونان القدامى قد وصفوا الإنسان أنه حيوان عاقل ، فقد رأوا في المرأة حيواناً غير عاقل ، وهكذا جُردت المرأة من إنسانيتها . " فأرسطو " مثلاً حدد وضع المرأة بين الرقيق والرجل الحر ، كما حدد لها أيضاً خصالاً وأخلاقاً مخالفة تماماً للرجل . أما "سقراط " فقد حقّر من شأن المرأة تحقيراً كبيراً، وكان يعامل زوجته "أكزانيثب " معاملة غير إنسانية، بل كان يتعمد إهانتها أمام الناس وطردها من مجلسه (٨) . وبالنسبة لـ "أفلاطون" ، نجده قد احتار في تحديد مكانة المرأة في جمهوريته المثالية ، فأحالها إلى رجل حتى يتسنى لها الالتحاق بالجيش والتدريب مع الجنود بلا حرج ، إلا أنه في النهاية أعاد المرأة إلى الحريم حيث مكانها المتدني في المجتمع الأثيني (٩) .

وبصفة عامة ، يمكن القول بأن المرأة في نظر الفكر اليوناني القديم عامة ، وعند أعلام فلاسفتهم خاصة ، هي دون الرجل في قوته البدنية وقدرته على إدارة شئون المجتمع . هذا ولم تختلف نظرة الرومان للمرأة عن اليونانين كثيراً ، بل ظلت نظرة المجتمع للمرأة جزءاً لايتجزأ من النظرة الكونية (الكوزمولوجية) . فبما أن طبيعة المرأة الضعف مقابل القوة عند الرجل ، فلابد أن يتشكل المجتمع على أساس هرمي يسود فيه الرجل ويتسلط على كل من هم دونه من كائنات ، بما في ذلك المرأة. واستمرت هذه النظرة للمرأة ، وهذه المرجعية الكوزمولوجية (الطبيعة / الأعراف) ،

سائدة خلال فترة العصور الوسطى الطويلة في أوروبا ، بالإضافة إلى ترسيخ الكنيسة المسيحية والديانة اليهودية لهذه النظرة إلى المرأة بحُجة أنها – أي المرأة – هي سبب الخطيئة الكبرى (طرد آدم من الجنة) ، وأنها ستظل أبداً أداة للشيطان ، إذ أنها تدفع الرجل دوماً إلى ارتكاب المعاصي والوقوع في الزلل .

وألتمس الآن من القارئ المعذرة ، إذ إنني سأضطر هنا إلى ترك أوروبا والعودة إلى الشرق ، الذي كان يشهد في ذلك الوقت حضارة مزدهرة ورقياً كبيراً مقابل الظلمة والكهنوت في العصور الوسطى الأوروبية ، التي سادت فيها روح الكراهية للمرأة والتي دعى معظم رجال الدين المسيحي إلى اضطهادها وسوء معاملتها إلى حد إحراقها حية لمجرد اتهامها بالسحر أو الشعوذة . وفي حديثنا عن مكانة المرأة خلال الحقبة الحضارية الزاهرة للمجتمع العربي الإسلامي فيما بين القرنين الثالث والرابع الهجري (التاسع والعاشر الميلاديين) نرى مناسباً أن نوضح طبيعة التباين القائم بين الفكر الرسمي والفكر الشعبي عن المرأة ، فالرأي لدينا أن الفكر الفكر الرسمي يتمثل فيما يقدمه أهل الفقه استناداً إلى التعاليم الإسلامية واجتهادات التفسير الشخصية ، بالإضافة إلى مايكون بعضهم قد اطلع عليه من كتابات الفلاسفة اليونانيين وغيرهم (١٠) . فقد كان الفقهاء يعنون أساساً بشرح النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة فيما يخص المرأة ، بالإضافة إلى وضع التشريعات وتقنين السلوكيات ، وتحديد طبيعة العلاقات بين الرجل والمرأة وبخاصة من ناحيتي الحقوق والواجبات ، وفيما يتصل أيضاً بالحلال والحرام ، والمقدس والدنيوي .

أما بالنسبة للفكر الشعبي عن المرأة ، فقد عبر عنه عامة الناس في الأمثال والسير الشعبية وأدب السخرية والضحك ، ويبدو لنا أن الرؤية الشعبية للمرأة قد

ركزت على خصال المرأة وصفاتها ، وعلى جني ثمار الخبرة الإنسانية في التعامل معها . وتجدر الإشارة هنا مثلاً إلى نموذج المرأة الجحوية (نسبة إلى جحا) في التراث الشعبي العربي وكيف أنه لم يحمل كراهية متأصلة نحو المرأة مثلما كان الوضع عند اليونانيين القدامى . فقد سبق أن ذكرنا أن سقراط قد كره المرأة عامة ، وزوجته بصفة خاصة ، وكانت علاقتهما سيئة للغاية ، فإذا تذكرنا امرأة جحا ، ونوادره عنها لانجد في هذه النوادر أي كراهية ضمنية للمرأة ، وإنما هي دُعابات وفُكاهة بل سخرية قُصد منها ضمناً أخذ الحيطة والحذر من دهاء المرأة وفطنتها ، وألا ينخدع الرجال بمظاهر البراءة أو السذاجة التي تتحلى بها المرأة (١١) .

وإلى جانب نموذج المرأة الجحوية ، نشير أيضاً – على سبيل المثال لا الحصر بأية حال – إلى نموذج المرأة في الليالي (ألف ليلة وليلة) ، وفق ماجاء في دراسة شائقة لمحمد رجب النجار ، أستاذ الأدب الشعبي العربي بجامعة الكويت . يعتبر النجار حكايات ألف ليلة وليلة بمثابة "ديوان المرأة العربية" ، القاهرة المقهورة عبر العصور ، في مجتمع أبوي / ذكوري (بطريركي) ، إذْ وُضع أمامها كثير من الروادع الدينية والأخلاقية والاجتماعية والقانونية والقمعية الذكورية والسلطوية ، بدءاً بالحكاية الإطار (شهريار وشهرزاد) وانتهاءً بألف ليلة وليلة من القص أو الحكي ، كانت المرأة طرفاً أو موضوعاً حاضراً فيها " . ويشير النجار إلى نقطة هامة وهي أن ظاهر الحكي يوحى بأن شهرزاد ضد المرأة (لما ورد من قصص قوامها الشك في النساء ، وأن المرأة ملكة أو غير مَلِكة طبيعتها الخيانة) ، إلا أن باطن الحكي يشير إلى عكس ذلك . فشهرزاد حين تحكي قصص الخيانة تعرض لها في حياد ملحوظ ، دون انحياز لجنس على آخر ، فهي لاتنفي – مباشرة – الخطأ والخطيئة ، ولكنها أيضاً تجعل الرجل قسيماً لها في الخطأ والخطيئة ،

فإذا ما تحقق لها هدم أوكار الشك بين الجنسين ، شرعت تقيم جسور الثقة بينهما على أسس جديدة ، قوامها التوادّ والتراحم والفهم والمعرفة ، وأن حقيقة العلاقة بينهما ليست علاقة تضاد أو تنافر ، بل علاقة تكامل وتكافل " (١٢) . وبافتراض أن قصص الليالي (أي ألف ليلة وليلة) قد حملت في طياتها سوء الظن بالنساء ، فقد " وكل العربي المسلم المرأة إلى دينها وأمانتها وحسن تربيتها ، في حين أن الرجل الأوروبي لم يطمئن حتى إلى ذلك – كما يذكر المؤرخ حسين مؤنس (رحمه اللَّه) في مقاله عن الليالي – وابتكر حزام العفّة تلبسه المرأة طوال غياب زوجها (١٣) .

وليعذرني القارئ أن آخذه مرة أخرى من الشرق إلى الغرب ، فالحادث أن الشرق العربي قد هوى نجمه لينهض الغرب ويعمّ به نور الفكر بعد ظُلمة زمن طويل ، وذلك بقدوم عصر جديد أطلق عليه المؤرخون "عصر النهضة الأوروبية" ، ثم جاءت من بعده حقبة التنوير ، وكلاهما مهداً للعقلانية والعلمية التي اتّسم بهما العصر الحديث ، إلى حدّ أن أصبح الفكر الغربي يشكل الرافد المعرفي الرئيس للفكر الشرقي بصفة عامة، والمثل الأعلى المُقتدى به ، وحتى عصرنا هذا . فمنذ عصر النهضة التي سادت بها النزعة الإنسانية في الحياة الفكرية حتى القرن الثامن عشر تقريباً ، بدأت صورة المرأة في العقلية الأوروبية تتغير وتتحسن نسبياً ، وذلك بإلقاء الضوء على بعض فضائلها ، وإبراز مباهج جمالها . ولقد كان للنهضة الإيطالية في الفن والموسيقى بالذات دوراً في تدشين هذا الاتجاه ، كما كان أيضاً لمبادئ الثورة الفرنسية الداعية إلى المساواة والإخاء دوراً إيجابياً نحو هذا الاتجاه ، ولو أن فرنسا قد أخمدت فيما بعد أصواتاً نسوية تحررية (١٤) . وكان أيضاً لبعض الأفكار الفلسفية التحررية خلال القرن الثامن عشر بالذات أثراً في إزالة مقولة نقص القدرة العقلية عند المرأة بالنسبة إلى الرجل والدعوة إلى مساواة الرجل والمرأة في العقل ،

كما نادى بذلك الفيلسوف الألماني "إيمـــانويل كـــانْت" Immanuel Kant (١٧٢٤ – ١٨٠٤) .

وجدير بالذكر أن القرن الثامن عشر جاء في أعقاب القرن الذي يطلـــق عليـــه "قرن العبقرية العلمية والاكتشافات" ، وكان لابد أن تتـــأثر الحيـــاة الفكريـــة العامـــة بالرؤى الحديثة لأهمية تطبيق القوانين العلمية والنظريات الرياضية وليس الاكتفاء فقط بالرؤية الفلسفية للإنسان والعالم ، القائمة على التأمل والتجريد . وعلى أية حال، فقـــد شهدت أوروبا منذ عصر النهضة حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً نقلـــة نوعيـــة تدريجية ومحدودة – إلى حدٍ ما – في الفكر الأوروبي تجاه المـــرأة ، وذلـــك بســـبب ماشهدته أوروبا من تغيرات فكرية واجتماعية كثيرة ، كما كان للتقدم العلمي والتقنـــي أيضاً أثراً كبيراً في الارتقاء بصناعة الآلات بل ميكنتها ، فلم يعد العمل يعتمد أساســـاً على القوة العضلية للرجل كما كان الحال قديماً ، والتي ربما يكون قـــد تولـــد عنهـــا فكرة اضطهاد المجتمع الأوروبي القديم للمرأة . نذكـــر أيضـــاً أن خـــروج المـــرأة للعمل ، ولو في نطاق محدود ومجالات معينة إبان القرن التاسع عشر ، قـــد قـــوّض -- إلى حدٍ ما – ادّعاء الرجل الأوروبي حقه في السيطرة على المرأة ، واضطهادهـــا والاستبداد بها أحياناً ، باعتباره المسئول الوحيد عن إعاشة الأسرة ، ومع ذلك فقد ظل الموقف الفلسفي العام من المرأة على حاله من الكراهية والتحقير .

ولعلنا نشير هنا إلى الفيلسوفين الشهيرين "آرثر شـــوبنهاور" (١٥) و"فريدريـــك نيتشه" (١٦) الذين وقفا موقفاً عدائياً ضد المرأة ، وإذا كـــان "نيشـــته" مجـــرد عـــدو للمرأة ، فإن "شوبنهاور" يُعتبر ألدّ أعدائها، كما نقرأ عنهما في الأدبيات الفلسفية . ومع ذلك فقد كانت هناك آراء فلسفية مخالفة لهذين الفيلســـوفين الشـــهيرين ، ومناهضـــة

لتأثيرهما أيضاً . وفي هذا الشأن تجدر الإشارة إلى الفيلسوف الإنجليزي "جون ستيوارت ميل" John Stewart Mill (١٨٠٦ – ١٨٧٣) ، أشهر فلاسفة القرن التاسع عشر المتحمسين للحرية والمساواة كما عبر عنهما في كتابيه " الحرية" و " استعباد النساء " . فقد تبنى هو وزوجته " هاريت تايلور" Harriet Tylor قضية وضع المرأة المتردي في مجتمعهما الإنجليزي حينذاك ، وأوضح ميلْ أن " المبدأ الذي يُنظم العلاقات الاجتماعية القائمة بين الجنسين مبدأ فاسد من جذوره لأنه يقوم على أساس تبعية أحد الجنسين (النساء) للجنس الآخر (الرجال) ، وهو مبدأ ينبغي هدمه ليحل محله مبدأ المساواة الكاملة ، التي لاتسمح بوجود ميزة لجانب على آخر إذ إن مبدأ "التبعية واسترقاق النساء" يعوق تقدم المجتمع ويمنعه من التطور (١٧) .

وبقدوم القرن العشرين وخلال نصفه الأول حدثت أحداث جِسام كان لها تأثيرها على نظرة المجتمع الأوروبى للمرأة فقد شهد العالم حربين عالميتين كبيرتين ، كما حقق العلم والتقنية طفرات تقدمية هائلة ، مقارنة بما تم إنجازه في عدة قرون سابقة ، نتج عنه الأمر الذى تغيرات اجتماعية جذرية . فقد خرجت المرأة للعمل في مجالات متعددة ، كما لعبت أدواراً كان الاعتقاد في الماضي أنها خاصة بالرجال فقط ، وذلك وفق الرؤى الفلسفية والكهنوتية التي رأت في المرأة نقصاً في القوة والعقل ، وأنها كائن ضعيف لايُعتمد عليه إلا في المتعة والخدمة . لقد عملت المرأة في المصانع الإنتاجية و الحربية على حدٍ سواء ، وشهدت أوروبا النساء في ميادين القتال تقوم بدور هائل في التطبيب والأعمال الإدارية والخدمات ، جنباً إلى جنب مع الجنود في زيهم ومعيشتهم ، ومشاركة الرجال المعاناة والآلام وأهوال الحرب . ولقد اتسع أيضاً نطاق تعليم المرأة ، كما برزت بعض الأسماء النسوية كأديبات ومفكرات وعالمات بارزات مثل " سيمون دو بوفوار" Simone de Beauvoir و "ماري كوري "

Marie Curie . ليس هذا فحسب ، فعلى الرغم من انشغال العالم بالحرب ، ثم محاولات التحرير من الاستعمار ، انطلقت أصوات نسائية في أوروبا وأمريكا بصفة خاصة تدعو إلى تحرير المرأة من قهر الرجل لها، والعمل على أن تتبوأ مكانتها الراقية في المجتمع . ولم تقتصر تلك الأصوات على الغرب فقط إذ نجد في عالمنا العربي ، وفي مصر بالذات ، انطلاق أصوات تحررية مماثلة ، نسوية وذكورية على حدٍ سواء (١٨) .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ ، وبداية عصر مابعد الحرب الذي تطلب إبانها وضع نظام عالمي جديد على أساس نظرة جديدة تستمد مقوماتها من التجربة الإنسانية المريرة للحربين العالميتين التي شهدهما النصف الأول من القرن العشرين، والعمل على مواجهة تداعياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ليس هذا فحسب، لقد أراد العالم حينذاك ترتيب شئونه من جديد عن طريق النهوض بفلسفة جديدة مخالفة تماماً لما كان سائداً من مقولات فلسفية حول الإنسان والكون ، وتوجهات أيديولوجية خاصة بالسياسة والاقتصاد ، وسلوكيات عدوانية بسبب الصراعات العرقية والسياسات العنصرية . وفي إطار هذا التوجه الفكري الجديد ، النابع من تجربة النصف الأول من القرن العشرين ، تقوضت كثير من الحجج الطبيعية المتمثلة في القوة الذكرية مقابل الضعف الأنثوي ، كما اضمحلت قيمة المقولات الفلسفية التي ظلت راسخة لعهود طويلة في وضع الأعراف الخاصة بالمرأة، وصوغ المعاملات المدنية معها ، وتشكيل المشاعر الشخصية نحوها وفق القوانين المستمدة من طبيعة الأشياء .

ولقد كان أيضاً للتقدم العلمي والتقني الهائل في مجال المعلومات والهندسة الوراثية ، واتساع دائرة الاتصالات الالكترونية ، بالإضافة إلى التغيرات الجذرية على الساحة الدولية من انكسار للاستعمار واستقلال للدول الناشئة وانطلاق نحو التنمية، أثراً كبيراً على إعادة النظر في التركيبة السكانية والاجتماعية لشعوب العالم ، وبخاصة في الدول الحديثة الاستقلال ، الأمر الذي دفع بمسألة المرأة إلى ساحة الفكر للدراسة . وهكذا تهيأت الظروف – أكثر من أي وقت مضى – لأن تنهض المرأة وتبدأ مسيرتها الكبرى نحو البحث عن الذات ، وإعادة النظر في علاقة الآخر (أي الرجل) بها وعلاقتها معه ، وبدأت تتحدث هي عن نفسها ، وتقدم صورتها كما تراها هي ، وليس كما يتصورها الرجل . ونجحت الأصوات التحررية في نهاية الأمر في تكوين حركة نسائية عالمية ، وإن كانت قد تبلورت وانطلقت بداية من الولايات المتحدة في نهاية ستينيات القرن العشرين .

ولكون هذه الحركة قد اتخذت طابعاً عالمياً ، ولأن صورة المرأة ودورها في النظرة الجديدة للحياة ، أو بمعنى آخر في إطار صوغ رؤية كونية جديدة للعصر القادم الذي يشهد عالماً بلا حدود ، واتصالاً إلكترونياً وتواصلاً فكرياً بين الأفراد والجماعات والشعوب لم يسبق له مثيل ، خصصت الأمم المتحدة ومنظماتها الدولية المعنية بشئون الحياة الاجتماعية والإنسانيات عام ١٩٧٥ سنة دولية للمرأة ، عُقد خلالها مؤتمر دولي للمرأة في مدينة المكسيك ، واعتبرت الفترة من ١٩٧٦ – ١٩٨٥ عقداً عالمياً للمرأة أسمته الأمم المتحدة " عقد المرأة " Women Decade، وتم خلاله عقد مجموعة من المؤتمرات والندوات ، وصدرت توصيات متعددة تتعلق بالمساواة بين الجنسين في المشاركة الاجتماعية والسياسية ، كما دعت إلى ضرورة تكثيف التعاون الإقليمي والدولي في مجال المرأة وإشراكها في الجهود الرامية إلى تحقيق السلام .

وفي هذا الإطار ، وارتباطاً بهذا الاهتمام العالمي بالمرأة ، بدأ المتخصصون في العلوم الاجتماعية والإنسانية بتبني منطلقات بحثية ومنهجية جديدة مسايرة لوقائع العصر الراهن واحتمالات المستقبل ، فسارعت الدوائر الأكاديمية الجامعية، والمؤسسات المعنية برسم السياسات الاجتماعية والحكومية وغير الحكومية على حدٍ سواء ، بتشجيع الدراسة والبحث في كافة شئون المرأة من منطلق إيجابي ومن منظور فسيولوجي ، اجتماعي / نفسي يستند إلى الفهم لأحوالها وإمكاناتها ، وطبيعة إسهاماتها في مواجهة مشكلات العصر الراهن وتحديات مستقبل هذا العالم السريع التغير والمهدد بمخاطر إنسانية جسيمة كالحروب والفقر والتدهور البيئي الناجم عن سوء استخدام الإنسان لتربة أرضه ومياهها ، وهواء سمائه . لقد توالت الكتابات عن المرأة ، بقلم المرأة وبفكرها ، وكان هذا حدث جديد أدخل الحوار الجاد ، (والساخن أحياناً كثيرة) بين الطرفين (أي الرجل والمرأة) . نتج عن ذلك صدور عديد من الكتب ، وآلاف المقالات ومئات الدراسات والدوريات المتخصصة ، الواحدة تلو الأخرى ، عن المرأة من مناظير فكرية متعددة ورؤى شخصية وعقائدية متنوعة ، وفيها يجد القارئ المحاولات الجادة من قِبل العلوم الاجتماعية والإنسانيات لإعادة النظر في التراث الفلسفي والديني ، بل العلمي أيضاً ، عن طبيعة كل من المرأة والرجل ، والعلاقة بينهما ، وأدوارهما في المجتمع (١٩) .

وفي هذا السياق ، نقرأ مثلاً لعلماء النفس – بحكم اهتمامهم بالفرد أساساً – دراسات عن التباين بين الرجال والنساء في أدائهم على اختبارات الذكاء أو القدرات ومقاييس الشخصية . ويشترك أيضاً علماء النفس مع علماء البيولوجيا في دراسات تكشف عن دور المخ أو الجينات عموماً في تفسير سلوكيات المرأة، في حين يهتم علماء الاجتماع أساساً بدراسة التنظيمات النسوية وبمعالجة موضوع النساء من حيث

هم أقلية اجتماعية داخل المجتمع ، إلى جانب مشكلات الأسرة بما في ذلك مسائل العمل وظاهرة الطلاق . ويهتم كلا من علماء النفس والاجتماع الغربيين في الوقت الراهن بدراسة موضوعات مشتركة عن المرأة ، حيث يتناولها كل تخصص من خلال مفاهيمه وأدواته التحليلية ، والتي نذكر منها على سبيل المثال مشكلة العنف بين أفراد الأسرة Domestic Violence ، وقضايا الزواج بين النساء ، ومسائل المخدرات والشذوذ الجنسي ، ومرض الإيدز ، وتأثير ذلك على الأفراد والمجتمع .

وربما تجدر الإشارة هنا أيضاً إلى التفرقة بين الرؤيتين الفلسفية والأنثروبولوجية للمرأة وقد يجيب ذلك من السؤال : لماذا ناصب معظم الفلاسفة (والأدباء أيضاً) (٢٠) العداء للمرأة وحذروا من تحريرها ، في حين وقف الأنثروبولوجيون منها موقفاً إيجابياً يقوم على الفهم وتوضيح علّة تباين مكانتها عبر الثقافات؟ يرجع ذلك – في رأينا – إلى عدة عوامل نذكر من بينها أنه رغم اشتراك الفلاسفة والأنثروبولوجيين في دراسة الإنسان إلا أن الفلسفة تنظر إلى الإنسان من منظور مُطلق وتجريدي ، في حين أن الأنثروبولوجيا تتناول الإنسان في واقعه الحياتي ، ومن منظور شمولي باعتباره وحدة بيولوجية نفسية اجتماعية مترابطة ، وأنه يعيش في مجتمع ويبتدع لنفسه أساليب للحياة . فالأنثروبولوجيا لا تبحث فيما يجب أن يكون عليه الإنسان ، مثلما يذهب إليه الفلاسفة في تصوراتهم عن الإنسان الكامل ، أو الإنسان الأسمى والإرادة القوية وفق رؤية " نيتشه " له مثلاً ، وإنما تبحث الأنثروبولوجيا في أوجه الحياة اليومية للإنسان وأنشطته الفكرية والعملية ، في واقعها المحسوس والمُشاهد ، وليس المجرد أو المثالي .

ففي حوار حول "الفيلسوف والمرأة" تم بين بعض أساتذة الفلسفة بجامعة الكويت ، تساءل حسين علي حسن : هل الفلسفة بوصفها مهنة أو دراسة أو اهتمام بشري تتضمن ما يؤدي إلى اضطهاد المرأة؟ ورد بنفسه على هذا التساؤل فقال : "إن الفلسفة من حيث هي نجد في العام والمجرد يمكن أن تجعل للفيلسوف موقفاً ضد المرأة ، لأن المرأة بحكم طبيعتها كثيراً ما ينظر إليها كرمز للحياة ، (والحياة هنا بمعنى الحياة الحسية) ، في حين أن الفيلسوف يريد أن يُحلّق في المجرد العام بحثاً عن العلل البعيدة للأحداث والأشياء ، فهو لايريد أن تستغرقه تفاصيل الحياة اليومية ، في حين أن المرأة تمثل الحياة بكل خصوبتها وتفاصيلها" (٢١) .

وإذا تقبلنا من جانبنا وجهة النظر هذه ، ورأينا كما أوضح فؤاد زكريا في هذا الحوار "أن نظرة الفيلسوف إلى عمله على أنه مُحلّق في عالم المعقولات ، وعلى أنه ذو طبيعة روحية في نهاية الأمر ، وأن المرأة جرى العرف على الربط بينها وبين العالم الحسي، قد يؤدي ذلك إلى شعور الفيلسوف بأنه يؤدي مهنته على أفضل وجه ممكن إذا ابتعد عن هذا المؤثر الحسي الواضح" (٢٢) ، فإن في ذلك تبايناً واضحاً مع نظرة الأنثروبولوجي إلى عمله عند دراسة مجتمع من المجتمعات أو جماعة من الجماعات، وهي أنه لابد له من أن يندمج في الحياة اليومية لهذا المجتمع وأن يشارك الجماعة أنشطتها ، وغالباً ما يقاسمها العيش ، فيتحدث لغتهم ، ويأكل طعامهم ، ويرتدي أزياءهم ، ويصف حياتهم – قدر الإمكان – كما يرونها هم ، وليس كما يراها هو أو يريدها لهم . فالأنثروبولوجي يحب الحياة ، ولذا فهو حريص على أن يصفها ويبرز تنوعها ، أما الفيلسوف – كما أفاد بذلك عبد الغفار مكاوي في اللقاء الفلسفي المشار إليه آنفاً – فقد ظلّ عنصر الحياة أو الطبيعة غائباً أو بعيداً عنه لعصور كثيرة ، كما لم تكن المرأة عموماً تشكل جزءاً هاماً من نسقه الفلسفي" ،

(٢٣) ذلك على عكس الأنثروبولوجي الذي لايكون – في رأينا – أي معنى لأطروحته عن أي مجتمع دون المرأة ، فالأنثروبولوجي لايهمل المرأة – مثلما يفعل الفيلسوف (٢٤) – بل يبرز وجودها الذي لاغنى عنه في المجتمع ، ودورها الإيجابي في فعاليات الحياة اليومية للاجتماع الإنساني .

وقد يتساءل القارئ عن دواعي هذه المقارنة بين الفكر الفلسفي ومنهجية العمل الأنثروبولوجي ، إلا أنه من المهم توضيح أن الانتقال من الفكر الفلسفي المجرد والمطلق ، الذي ظل سائداً في أوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر (على الرغم من توجهه العلمي ومنطلقه التجريبي وبخاصة في العقود الثلاثة الأخيرة منه) إلى دراسة واقع الإنسان المحسوس ونُظم حياته خارج أوروبا ، لامن منطلق تنظير المقاعد الوثيرة ، وإنما بتطبيق منهجية الدراسة الأنثروبولوجية الحقلية ، قد كشف لنا عالم المرأة غير الأوروبية . منذ ذلك الحين أصبحت هذه المرأة جزءاً لا يتجزأ من عالم المرأة ككل ، والفكر العالمي عنها ، الذي أسهم في تشكيله إلى حدّ كبير الدراسات الأنثروبولوجية التي ركّزت اهتماماتها البحثية في المجتمعات التقليدية النائية ، في حين قام أيضاً علماء الاجتماع والنفس والاقتصاد ، وغيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانيات ، بدراسات عن جوانب عديدة من حياة المرأة ومكانتها في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، والمناطق الحضرية في الغرب والشرق على حدٍ سواء . ولقد أدى ذلك التقارب مع المرأة (على عكس التباعد الفلسفي عن الخوض في أمورها أو جعلها جزءاً من أنساق فكرهم) (٢٤) إلى معرفة أكثر توثيقاً بأحوالها (دون كراهية) ، وإلى فهم أكثر عمقاً لجوانب متعددة لوضعها في هذا العالم المتغير .

إن بدايات كشف عالم المرأة التي نعتبرها واحدة من أهم الإنجـــازات البحثيـــة الإنسانية للقرن العشرين ، وبخاصة خلال نصفه الثاني ، قد زودتنا ببيانات لـــم تكـــن متاحة من قبل ، كما قدمت معلومات عن أوضاع المرأة عبر الثقافات لم يكن متيســـراً معرفتها لعهود طويلة . ولقد أوضح لنا هذا الكشف الجديد أيضاً الفجوة القائمة بين سن القوانين وصدور التشريعات وتطبيقاتهما في الواقع ، كما بين التناقض الكبـــير بيـــن الفكر والفعل حتى في أكثر البلاد تقدماً . ففي أمريكا مثلاً ، وهي البلـــد الـــذي يمثـــل قمة التحرر في عصرنا الراهن ، والتي حظيت فيه المرأة بحقوق ومكاســـب عديـــدة لم تحصل عليها (أو حتى على بعضها) المرأة في البلاد الأخرى المتقدمـــة ، (نـــاهيك عن البلاد الأقل تقدماً أو الفقيرة والمتخلفة) ، نجد أن المرأة الأمريكية تعـــاني بشـــدة من قسوة الرجل واضطهاده لها . وتأخذ هذه القسوة عدة أشكال ، فنذكر مـــن بينهـــا مثلاً اعتداء الأزواج على زوجاتهم بالضرب المُبرح ، الذي قد يؤدي في كثـــير مـــن الحالات إلى الإجهاض أو حدوث عاهات مستديمة . (٢٥) كما نذكر أيضاً اغتصـــاب النساء أو التحرش بهن أثناء العمل .

وتفيد بعض التقارير الأمنية التي نُشرت أجزاء منها في الصحافة الأمريكيـــة : "أن حالات الاغتصاب للفتيات أو النســـاء تحـــدث فـــي جميـــع الولايـــات المتحـــدة الأمريكية ، وبمعدل حالة كل دقيقتين أو ثلاث تقريبـــاً ، علمـــاً بأنـــه لا يتـــم إبـــلاغ الشرطة عن كل الحالات حفاظاً على السمعة أو خوفاً من تهديدات المُعتدي" . وتفيـــد هذه التقارير أيضاً أنه كثيراً ما تتعرض المُغتصبات للإصابة بمرض الإيـــدز ، أو أن يُقتل بعضهن بعد اغتصابهن . (٢٦) ولخطورة الأمر ، توجه – في الوقت الراهن – الرابطة الطبية الأمريكية ، بمعاونة مئات المنظمات الحكومية والأهلية ، حملات مكثفة ضد العنف والدعوة لمكافحة القسوة ضد النساء . هذا من ناحية القســـوة ، أمـــا عـــن

الاضطهاد ، فتلقى المرأة الأمريكية ، وبخاصة صاحبة البشرة السوداء ، تضييقاً عليها في سوق العمل ، أو تشغيلها في أعمال أقل من كفاءتها ومؤهلاتها ، كأعمال الخدمة والنظافة مثلاً ، بالإضافة إلى منحها أجوراً أقل بكثير مما يتقاضاه الرجال فيما لو تساوت الأعمال والكفاءات .

إن عالم المرأة ، المُكتشف حديثاً ، أوضح لنا أنه لايخص فقط النساء الأمريكيات من أهل الفكر والأدب أو الفن اللاتي يُطالبن بإلغاء التفرقة الكاملة بين الرجل والمرأة طبيعياً واجتماعياً ، أو مثيلاتهن في الدول الغربية (وبعض دول الشرق العربي أيضاً) اللاتي يرفعن أصواتهن أيضاً – ولو بنسب مختلفة ، وأولويات متباينة (٢٧) – لإنهاء قهر الرجال لهن وسلبهم لحريتهن في التعبير عن وجودهن والإفصاح عن مطالبهن أو سُبل نيلها ، يتضمن عالم المرأة أيضاً – على نطاق واسع – أوضاع الفقر والمرض والأمية التي تعاني منها المرأة ، ولعهود طويلة ، في أنحاء كثيرة من هذا العالم ، وبخاصة في أمريكا اللاتينية وأجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا . فالمرأة في هذه الأماكن لا تُعْطِى أهمية كبيرة لمسألة التحرير ، ومقولة المساواة مع الرجل ، قدر اهتمامها بالغذاء لطفلها (قبل نفسها)، وبالعمل على محو الفقر أو التقليل من آثاره المدمرة على الصحة اللازمة للعمل الشاق الذي تقوم به المرأة داخل المنزل وخارجه نظير أجر لايكفي حتى لشراء الحليب لإرضاع الأطفال الذين تعجز أمهاتهم عن إرضاعهم لأداء عملها خارج المنزل لفترات طويلة أو لسوء تغذيتها في أغلب الأحيان . إن المرأة تشكل نصف سكان العالم تقريباً ، ولكن دخولهن المادية لاتزيد عن واحد في المائة فقط من الدخل المادي العالمي . (٢٨)

فإذا نظرنا إلى المرأة عالمياً ، ومن منظور أنثروبولوجي ، يتبيّن لنا بجلاء وجود مفارقات كبيرة بين نساء المجتمعات الغربية المتقدمة والمجتمعات الفقيرة والنائية الواقعة في شرق هذا العالم وجنوبه بصفة خاصة ، وذلك من نواحي الفقر والغنى ، والعلم والجهل ، والصحة والمرض . ومع ذلك نتساءل هل هناك من موضوع رئيسي أو موضوعات محورية (Themes) ، تتبلور حولها قضية المرأة بحيث تشكل نمطاً لثقافتها أينما تكون ، ولو بنسب متفاوتة ؟! أفترض هنا – مبدئياً – وجود موضوعين أساسيين يشكلان محورية ثقافة المرأة عالمياً وهما القهر والحزن. ولنبدأ بسمة القهر ، ولنقرأ سوياً هذا المقتطف لكلمات – أغنية لمطربة عربية يتكرر إذاعتها يومياً في الوقت الراهن ، وربما لعدة مرات ، وأحياناً مع باكورة فترة الصباح :

مظلومة يا ناس ... مظلومة ، وبريئة ولكن مَتْهومة
الطير يغني على غُصنه .. والنسمة بتردد لَحنه : أنغام جميلة وشجية
أما أنا .... أنا شُفت الضَنى ... وطول عمري عايشة مقهورة

وقد يظن القارئ أن المرأة العربية هي وحدها التي تشعر بقهرها من قِبل المجتمع الذكري ، إلا أن الأمر غير ذلك ، فهي حتى في أمريكا مقهورة ، ولو بنسبة أقل من غيرها . وعن شعور المرأة العربية بالقهر ، فقد عبرت عنه مجموعة من الكاتبات العربيات في قصصهن . فالدارس لأدب المرأة العربية المعاصرة وقصصها أو أشعارها يلمس ولاشك القهر كامناً بين السطور والسرد القصصي ممثلاً في مقولة " معاناة المرأة " التي يندرج تحتها عدة موضوعات فرعية مثل " عدم التوافق مع الزوج " أو " عدم إخلاص الزوج " ، أو " عدم خصوبة المرأة " ، ومن ثم " الطلاق "، وغير ذلك كثير (٢٩) . وهاهي إحدى الشاعرات الكويتيات ، سعاد الصباح مثلاً ،

تناشد الرجل أن يكف عن التعالي والقهر للمرأة ليصبح صديقاً لها متفهماً أحاسيسها ومشاعرها ، وليس سيداً متسلطاً لا يرضى بدور غير أدوار البطولات . وعن القهر في ثقافة المرأة العربية المتعلمة والمتحررة ، نقرأ للباحثة منى أبو سنة ردّ القهر إلى النظام الأبوي (البطريركي) الذي قام بتأسيس نسق من القيم لا يسمح لعقلية المرأة إلا بأن تكون " عقلية مطبخية " – على حدّ تعبيرها ، لذا فهي ترى أن تحرير المرأة من القهر الذكوري لن يتم إلا بنقد عقل الرجل وعقل المرأة على حدٍ سواء (٣٠) .

ولنكتفي بهذا القدر عن سمة القهر ، وننتقل إلى فكرة الحزن الكامنة في ثقافة المرأة ، فكراً وسلوكاً ، وسيكون مرجعنا هنا الأدب والتراث الشعبي . ففي عالمنا العربي مثلاً نجد أن الحزن دفين في جوانب عديدة من الحياة اليومية . نقرأ ذلك في الشعر والنثر ونستمع للبكائيات في الأغاني التي تمتلئ بكثير من كلمات الشجن والأتراح ، فالرجل والمرأة العربية كلاهما حزانى ، وإن اختلفت أسباب الحزن وأساليب التعبير عنه . فالمرأة العربية في واقعها وفي داخلها فعلاً حزينة ، إلى حدّ أن يَسْكُنها الحزن ويَبكيها الضَجَر ، على حد وصف الشاعرة سعاد الصباح . وقد يتعجب القارئ عندما يعلم أن المرأة الأمريكية لا تقل عن المرأة العربية في مشاعر الحزن الدفين . ففي دراسة عن ثقافة المرأة الأمريكية ، استخلص كاتبها ما أطلق عليه "عوالم الألم" World of Pains الذي تعيش فيه النساء في أمريكا . وعلى الرغم من النهايات السعيدة لبعض القصص التي تكتبها مشاهير الكاتبات الأمريكيات إلا أن السرد فيها يحكي عن ألم كبير ، وحزن عظيم (٣١) . وفي دراسة لمجموعة من الأغاني الشعبية والدينية قام بتحرير كلماتها أو غنائها مطربات شهيرات ، كشف الباحث جوانب حزن عميقة في حياة المراة الأمريكية بسبب معاناتها في الحياة اليومية ، وقسوة العلاقات المادية ، وانتفاء التعاطف بين الأزواج والزوجات ، وشكوى

الزوجات من استبداد أزواجهن وقسوتهم عليهن ، وانغماسهم في تعاطي المخدرات ، وسوء معاملة الأبناء ، وحالات السكر الشديد التي يعود بها الأزواج إلى منازلهم ليلاً ، والمرأة قد أنهكها التعب من مشقة العمل داخل المنزل وخارجه ، كما أنها ضجرت من طول الانتظار . ولقد عكست أيضاً بعض الأغاني ، وبخاصة تلك التي تحررها وتغنيها المطربة الشعبية " جوان بايز " Joan Baez – بعض المواقف الفلسفية التي تتبناها المرأة الأمريكية مثل التعاطف مع الفقراء ، ونصرة الأقليات ، والتطوع للإسهام والعمل في الجمعيات والمؤسسات الخيرية (٣٢) .

وإذا وضعنا هذه المشاعر (القهر والحزن) التي تشكل محورية أساسية في ثقافة المرأة عموماً ، فإن تطلعات المرأة المستقبلية ، وبمعنى آخر فكرتي الأمل والمثابرة يمثلان – في رأينا – جانباً هاماً آخر من هذه الثقافة ، وقد أرادت مجلة The Futurist الكشف عن طبيعة هذا الجانب فدعت عدداً من النساء ، من ثقافات متنوعة ومهن مختلفة وأوضاع اجتماعية متباينة إلى الإدلاء بآرائهن عمّا يتوقعن من تغير في حياة المرأة عموماً في نهاية العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين ، أي في عام ٢٠٢٠ . وعلى الرغم من تنوع الإجابات ، وتباين التوقعات ، إلا أنها عكست الأمل الكبير في تحسين أوضاع المرأة عالمياً ، وفي تبوئها مكانة أفضل ، مما يزيد من مشاركتها في إدارة شئون المجتمع . وبصفة عامة فقد ساد اتجاه بين تلك الآراء يصف " المستقبل المُفضل " لديهن أنه " المستقبل الذي يجمع بين الرجال والنساء لخدمة الإنسانية " (٣٣) ، والذي ينظر فيه الرجال إلى الفروق البيولوجية بينهم وبين النساء على أنها منطلق للتكامل بينهما وليس للتعالي وسيادة الذكورة على الأنوثة . فالمستقبل المُفضل في ثقافة المرأة – وفق هذا الاستطلاع – هو المستقبل الذي تَبْرأُ فيه البيئة من عللها ، وتُزال حجج العنصرية في تفوق عرق على آخر ،

أو جنس على جنس ، وهو أيضاً – ولا شك – مستقبل السلام وحقن دماء البشر. وفي هذا الإطار يبدو لنا أن " المستقبل المُفضل " في ثقافة المرأة يعكس الأمل الكبير ، والعزم الأكيد في تغيير العالم مرحلياً فيما لو تحررت المرأة وشاركت الرجل مشاركة كاملة في إدارة شئون الحياة الإنسانية .

ولقد جاءت بعض التوقعات النسوية في هذا الاستطلاع لطبيعة المستقبل المُفضل لديهن وما يأملن أن يتحقق فيه للمرأة، أن المرأة الأمريكية – بصفة خاصة – ستنال في العقدين القادمين حظاً أوفر من العمل في كافة المجالات بما في ذلك مجالي الاقتصاد والسياسة ، فيصبحن رئيسات لشركات عالمية كبرى ، وأصحاب مؤسسات تجارية مُنافسة ، وقد تصبح إحداهن أول رئيسة للولايات المتحدة الأمريكية قبل حلول عام ٢٠٢٠ . ومع أنه كان في الماضي البعيد والقريب نساء ملكات تتبوأن العروش وحكمن الشعوب في أجزاء متفرقة من العالم ، إلا أن معظمهن كان قد ورث هذا المنصب بجريان الدم الملكي في عروقهن ، أو بسبب حيلهن ودهائهن مقابل عجز الحكام الرجال وانغماسهم في اللهو والملذات . أما عن المستقبل – كما جاء في الاستطلاع المشار إليه ، فسوف يشهد أنه لاحاجة لدم ملكي أو عمل تآمري لتصبح المرأة حاكماً فعلياً ، وليس صورياً كما هو الحال في بعض البلاد ، ويشهد عالم اليوم أن التوقع المُستقبلي للمرأة على هذا المستوى ليس ممكناً فحسب ، بل سوف يكون شائعاً في الدول المتقدمة والتقليدية على حدٍ سواء .

وفي نهاية هذا العرض الموجز للغاية عن بعض جوانب المرأة في عالمنا المعاصر المتغير ، والذي تطرقنا فيه إلى رؤوس موضوعات يحتاج كل منها إلى دراسة وافية ولاشك ، نقول – على أية حال – إن عالم الإنسان هو عالم الرجل

والمرأة معاً ، وأن لهما ثقافة واحدة هي الإنسانية ، التي لايجوز تجزئة مقوماتهـــا أو قبمها ، ومع ذلك فللرجال ثقافتهم الفرعية ، كما أن للنساء ثقافتهن الفرعية ، والثقافـــة الفرعية هي جزء من كُلٍ متكاملْ ، وبتلاحم الثقافتين وتكاملهما ترتقـــي الثقافـــة الأم – إن صح التعبير – ويرتقي المجتمع . ولكن يبقى السؤال ، مع ذلـــك ، هـــل هـــذا ممكن؟!

obeikandl.com

مقتطفات من الكتابات والقصص الفرنسية
(النصف الأول من القرن العشرين)

(١)

المرأة المرآة

"لقد أدركت مع مرور الزمن أننا نحب أن نضفي على المرأة حالتنا الروحية والنفسية : وهو حال لاصلة له بقيمة المرأة بل بقيمة المرحلة النفسية التي يجتازها . فالأحاسيس التي تثيرها فينا امرأة عادية تساعدنا على إدارك أبعاد حميمة من ذاتنا . أبعاد شخصية خفية أساسية لايمكن أن نراها بهذا الوضوح إثر حديث ممتع نتبادله مع رجل متفوق ، أو عقب تأمل ناجم من الإعجاب بعمل من أعماله الفنية" .

* رواية " البحث عن الزمن الضائع" ، ١٩١٨ ، مارسيل بروست .

(٢)

مدرسة النساء

"طالما كانت تحبني لم تكن مهووسة بالتعرف على ذاتها واكتشافها ، بل كان هدفها أن تتصهر بي"

(روبير يتحدث عن زوجته إيفلين)

"يظن روبير أنه يعرفني حق المعرفة، فهو لا يتخيل أبدا بأن لي حياة مستقلة، لايتصورني إلا كجزء لا يتجزأ منه . أنا جزء من ترفه ، أنا زوجته"

*(إيفلين تتحدث عن زوجها – قصة "مدرسة النساء" لأندريه جيد ، ١٩٢٩) .

(٣)

أمجانين أنتم ؟

تعال ياحبيبي ولا تضع هذه الفرصة على نفسك . إذا تجولت في الشوارع كلها فلن تلتقي بامرأة ميتة تتحرك وتتكلم ، لقد وعدتك بالحقيقة وسوف أقولها لك . تعال أبلغك إياها: "أنا إنسانة ميتة" .

(رونيه كروفيل ، رواية "أمجانين أنتم؟" ، ١٩٢٩) .

(٤)

الكآبة والأسى

"أين يجد الناس القوة التي تمنحهم الأمل بينما هم يعانون كل يوم من قلق الفجر ؟ هذا العالم ينوء بكآبة وأسى ، تحت وطأة فجر كل يوم جديد ، هذا العالم الذي يعرف أنه مكرس للخيبة والموت" .

(سيمون دو بوفوار ، "كتاب الفوضى" ، ١٩٣٠)

(٥)

للمرأة وجهان

"للمرأة دائما وجهان ، أحدهما يخيب آمال الرجل . فهي تمثل في نظره كل مايتمناه ، وكل ما يفشل في الحصول عليه" ... "تبدو المرأة وكأنها تحمل في جسدها مكونات الخير والشر كافة ، وكل القيم الأخلاقية وعكسها، لأن الرجل يسقط عليها كل ما يشتهي ، وكل ما يخاف، كل ما يحب ، وكل ما يكره" .

(سيمون دو بوفوار ، كتاب الجنس الثاني ، ١٩٤٩) .

مقتطفات من الشعر العربي النسائي

(النصف الثاني من القرن العشرين)

(١)

كن صديقي

كن صديقي . كن صديقي
كم جميل لو بقينا أصدقاء
ان كل امرأة تحتاج أحيانا إلى كف صديق.
وكلام طيب تسمعه ..
وإلى خيمة دفء صنعت من كلمات.
لا إلى عاصفة من قبلات
فلماذا يا صديقي ؟.
لست تهتم بأشيائي الصغيرة
ولماذا ... لست تهتم بما يرضي النساء؟..

(سعاد الصباح ، شاعرة كويتية)

(٢)

أغاني الصبا

فلتعصف الريح، فلتعصف صواعقها
فلتغلف الأرض بالأثقال والشرر
فيهدر البحر فلتهدر غوائله
أنا الضعيفة فوق البحر والقدر
فلتزفر النار، فلتصرخ مراجلها
فلتحرق الكون من ماء ومن حجر
فليزيد الناس فيروعوا ويضطربوا
أنا الضعيفة فوق الناس والبشر

(ملك عبد العزيز ، شاعرة مصرية)

(٣)

التائهة

عبثا أريق مدامعي ، وأبث آهاتي سدى
قلبي يمزقه الصراع ، ولا مجيب سوى الصدى
وشفاهي الظمأى تحس في الثرى أثر الندى
قست الحياة ، وعذبت نفسي فرفقا يا ردى

(لميعة عمارة ، شاعرة عراقية)

(٤)

هو وهي

حياتي يا عباس حلم
مروع الأشباح
حلم أطبقت علي به جدران سجن
داج رهيب النواحي
عشت فيه مخنوقة الروح ظمأى
لندى الفجر ، للشذى ، للنور
الهواء الثقيل يكتم أنفاسي وقيدي
يغل دفق شعوري
كلما ضقت بالظلام وبالكبت
تلفت مثل طير مكبل
عل فجر الخلاص يلمح، لاشيء سوى الليل
ليل سجني المقفل .

* * *

أبوسع السجون خنق الأحاسيس
وقتل الحياة في الأعماق ؟
من يصد الشلال عن سيره الكاسح
عن اندفاعه الدفاق ؟.

(فدوى طوقان ، شاعرة فلسطينية)

(٥)

شيء من الجنون

قصائدي
شيء من الحزن
من الخوف
من الجنون
وأحرفي
ثلوج شك
أمطرت
يقين

(غنيمة زيد الحرب ، شاعرة إماراتية)

الإحالات والحواشي :

(١) يوجد في الوقت الراهن وسائل تقنية متقدمة تكشف عن جنس الجنين أثناء فترة الحمل ، إلا أن استخداماتها ليست شائعة ولا في متناول جميع الطبقات أو الأفراد ، وبخاصة في البلاد النامية .

(٢) تستخدم كلمة "جنس" في اللغة العربية (ومرادفتها كلمة xeS باللغة الإنجليزية) لتشير إلى مجموع الخصائص الفسيولوجية والتشريحية والسلوكية التي يتميز بها الأفراد وينقسمون من حيث النوع إلى ذكور وإناث . ولقد شاع حديثاً استخدام الكلمة الإنجليزية Gender بدلاً من كلمة Sex التي تعني ضمناً "الجماع والتناسل" .

(٣) قضى "جون جاري" ما يقرب من سبع سنوات في البحث والاستقصاء حول طبيعة اختلاف النساء عن الرجال وبالعكس . وجد أن الفرق بينهما كبير في رؤية كل جنس إلى ذاته وإلى الآخر ، وفي نظرتهما للحياة ومرجعتهما الثقافية وإلى حد مماثلته للجنسين والفروق بينهما بالمسافة الشاسعة بين كوكبي المريخ والزهرة . ونشر دراسته في كتاب بعنوان " الرجال من كوكب المريخ والنساء من كوكب الزهرة "Men Are from Mars and Women Are From Venus" ، وقد حظي هذا الكتاب الذي نُشر عام ١٩٩٦ باهتمام كبيرلدى القراء على كافة المستويات . ولمعرفة مضمون الكتاب وأفكاره الرئيسة ، نوصي القارئ بالاطلاع على عرض للكتاب قدمه محمد الرميحي في حديثه الشهري بمجلة العربي ، عدد ٤٦٢ ، مايو ١٩٩٧ ، ص ص ١٩-٣٠ .

(٤) انظر مقال منار فتح الباب بعنوان "المرأة في الحضارات المصرية القديمة" ، مجلة سطور ، القاهرة ، أغسطس ، ١٩٩٧ ، ص ٥٦-٥٧ . ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع نوصي القارئ بالاطلاع على المرجع التالي :
عمر رضا كحالة ، المرأة في القديم والحديث . الجزء الأول . مؤسسة الرسالة ، دمشق ، ١٩٧٩ . وبالنسبة للمرأة العربية ، فقد ضمنت رجاء سمرين كتابها " شعر المرأة العربية المعاصرة " فصلاً عن مكانة المرأة العربية عبر العصور – بيروت : دار الحداثة ، ١٩٧٥ .

(٥) مقال منار فتح الباب ، مرجع سابق ، ص ٥٧ .

(٦) مقال منار فتح الباب ، مرجع سابق ، ص ٥٧ .

(٧) تعبر إحدى اللوحات الفرعونية الشهيرة عن المرأة والأرض والخصوبة ، تقدم نتاج الأرض من الخضرة لفرعون الواقف أمامها وقد انتصب عضوه الذكري ترميزاً للإخصاب والتناسل .

(٨) عن أرسطو يُذكر قوله : " هَبْ قلبك لله يزدد نوره ، ثم هَبْه للمرأة واكتسب صَكّاً مع الشيطان " .
وكان سقراط كثيراً ما يتحدث عن المرأة على أنها مصدر النكد ولكنها شرٌ لابد منه . ومن أقواله أيضاً أن الزواج التعيس يجعل من الزوج فيلسوفاً مثله .

(٩) يذكر أستاذ الفلسفة إمام عبد الفتاح إمام أنه قد يبدو لبعض الدارسين أن أفلاطون كان نصيراً في بعض الأحيان للمرأة ، إلا أنه في حقيقة الأمر كان مسايراً للجو العام في المجتمع الأثيني القديم في كراهيته للمرأة . لمزيد من المعلومات عن موقف أفلاطون من المرأة ، نوصي بالاطلاع على دراسة

obeikandl.com

إمام عبدالفتاح إمام بعنوان " أفلاطون والمرأة " ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، رقم ٥٤، عام ١٩٩٢ .

(١٠) يذكر إمام عبد الفتاح إمام أنه قرأ عبارات في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي تكاد تكون منقولة بنصها عن أرسطو مثل الرأي القائل أنه إذا تحلت المرأة بفضائل الرجل فهذا شرٌ تفعله ، فهذه عبارة أرسطيّة وليست إسلامية . (راجع مادة ندوة " الفيلسوف والمرأة " ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، عدد ٦٤ ، ١٩٩٤ ص ص ١٦٨) .

(١١) للاطلاع على نوادر جحا عن زوجته ، وعلى تحليل لما يشير إليه محمد رجب النجار ، أستاذ الأدب الشعبي العربي ، بنموذج المرأة الجحوية . انظر كتابه بعنوان " جحا العربي : شخصيته وفلسفته في الحياة والتعبير " . دار السلاسل ، الكويت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٢ .

(١٢) محمد رجب النجار . قصص الحب في الليالي : البُنى والوظائف . مجلة فصول ، ربيع ١٩٩٤ ، ص ص ٢٥١ – ٢٦٨ . انظر أيضاً مقاله " المرأة في الملاحم الشعبية " – مجلة عالم الفكر ، عدد رقم ١ ، ١٩٧٦ ، ص ص ٦٧ – ٩٤ .

ولمزيد من المعلومات عن صورة المرأة في الأدب العربي الشعبي نوصي القارئ بالاطلاع على المقال المنشور عن هذا الموضوع في مجلة التراث الشعبي ، العدد ٤٦ ، ١٩٩٧ ، نوصي أيضاً بالاطلاع على المقال الذي حررته عزيزة السيد بعنوان " صورة التراث الشعبي لدى المرأة ونماذج من الأدب الشعبي : رؤية سيكوسيولوجية " ، مجلة العلوم الاجتماعية ، جامعة الكويت ، سبتمبر ، ١٩٨٢ .

(١٣) انظر مقال حسين فوزي الأدب الشعبي العربي : أجمل هداياه للفكر العالمي ، منشو في كتابه "تاريخ موجز للفكر العربي" ، دار الرشاد ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

(١٤) تذكر الباحثة منى أبو سنة أن زعيمات الحركة النسائية في الثورة الفرنسية قد واجهن عوائق جسيمة ، إذ أُعدمت " أولمب دي جورج" عام ١٧٩٣ بدعوى أنها ملكية ، وأُودعت " تراون دي ميريكور " مستشفى الأمراض العقلية ، كما أُغلقت أندية المرأة . أنظر منى أبو سنة ، نقد عقل المرأة . دار قباء ، القاهرة ١٩٩٧، ص ٧٢ .

(١٥) من بين آراء " شوبنهور " عن المرأة قوله " إنه قد يكون للنساء موهبة عظيمة ولكنهن لن تبلغن العبقرية لأنهن ذاتيات ، وكل شيء فيهن شخصي ، وينظرن إلى الأمور نظرة ذاتية كوسيلة لمصلحتهن الشخصية " .

(١٦) يتفق نيتشه مع شوبنهور وآخرون مثل الفيلسوف كيركيجارد Kierkegarrd (١٨١٣ – ١٨٥٥) في أن تحرير المرأة سيجلب لها التعاسة كما يؤدي إلى إنحلال الغرب ، وأنه إذا تثقفت المرأة تفقد أنوثتها ويفقد الرجل رجولته . يقول كيركيجارد " أن المرأة لاتصبح حرة إلا بالرجل ، لذلك يطلب يدها ، وفي حقيقة الأمر إنه ينقذها " .

هناك بعض الآراء التي تفسر مواقف هؤلاء الفلاسفة المتعصب والكاره للمرأة بسبب حالتهم المرضية (العضوية أو النفسية) ، ولفشل تجاربهم أو علاقاتهم مع النساء . فلقد كتبت أخت نيتشه ، فيلسوف النازية وسيادة الجنس الآري والدعوة إلى القوة ، عن مرضه وهذيانه ، بل عجزه الجنسي أيضاً .

لمزيد من التفاصيل عن آراء شوبنهور ونيتشه وكيركيجارد عن المرأة نوصي القارئ بالاطلاع على مقال نُشر باللغة الفرنسية وتُرجم إلى العربية بعنوان " المرأة الخالدة في عيون الفلاسفة ، المنشور بمجلة الثقافة العالمية ، أبريل ١٩٩٨ .

(١٧) نوصي القارئ الاطلاع على مقدمة ترجمة أستاذ الفلسفة إمام عبد الفتاح إمام لكتاب " استعباد النساء " لجون ستيوارت ميل ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ٨ – ٣١ .

(١٨) من مصر ، نذكر على سبيل المثال ، مقالات باحثة البادية (ملك حفني ناصف) التي نشرتها في صحيفة الجريدة . ولدت باحثة البادية عام ١٨٨٦ وتوفيت عام ١٩١٨ ، وقضت حياتها داعية للمساواة بين الرجل والمرأة في حدود الاعتدال والتعاليم الدينية . (راجع كتابها " النسائيات " . دار الهدى ، ١٩١٠) .
نشير أيضاً إلى كتاب " تحرير المرأة " لقاسم أمين الذي صدر في مطلع القرن العشرين . استمرت الأصوات الداعية لتحرير المرأة خلال النصف الأول من القرن العشرين (هدى شعراوي في مصر وغيرها) إلا أنه في العقود الثلاث الأخيرة من هذا القرن تعددت الأصوات ، وتعالت بقوة أكبر وتنظيم أفضل على المستويين المحلي والإقليمي ، وإن اختلفت التوجهات لمضمون التحرير وأسلوبه .

(١٩) في هذا الإطار ، أنشأت الجامعات برامج دراسية متخصصة عن المرأة Women Studies Programs ، كما قدمت عديداً من المنح الدراسية لبحث جوانب متعددة من حياة المرأة المعاصرة محلياً وعالمياً . وقد شجع هذا التوجه ارتباط المرأة بمشروعات التنمية في البلاد النامية بصفة خاصة والتي تقوم بتمويلها هيئات التنمية العالمية كالبنك الدولي وهيئة التنمية الدولية الأمريكية أو الكندية ، ومثيلاتها في أوروبا والعالم العربي .

(٢٠) من عالمنا العربي ، نشير مثلاً إلى شهرة الأديب المصري توفيق الحكيم عدواً للمرأة ، وإذا كان هو كذلك فإن عباس محمود العقاد يُعدّ ألدّ أعدائها ، كما يقول الكاتب الصحفي أنيس منصور في كتابه " كانت لنا أيام في صالون العقاد " ، المكتب المصري الحديث للنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢. وفي دراسة عن الشاعر اللبناني إلياس أبي شبكة أطلق عليه صاحب الدراسة "شاعر الأفاعي " لأنه يعتصر المرأة في شعره حتى يتركها جثة هامدة ، فهو شاعر الفتك بالمرأة من هذه الناحية ، إلا أنه من ناحية أخرى كان " شاعر النُسْكِ " الذي أغناه التصوف عن ذلّ السؤال ، فاكتفى بالاتحاد الروحي بالمحبوب .

انظر كتاب دراسة خريستو نجم بعنوان " رُهاب المرأة في أدب إلياس أبي شبكة " ، دار الجبل ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ص ٣٩. وعن الأدباء الفرنسيين وموقفهم من المرأة ، أنظر مقال ، غيث جاسر بعنوان " المرأة أسطورة الحب وحتمية التحرر " ، الفكر العربي المعاصر ، ١٩٩٢ .

(٢١) انظر " الفيلسوف والمرأة " ، ندوة نظمها قسم الفلسفة ، جامعة الكويت . المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، عدد ٦٤ ، ١٩٩٤ ، ص ١٥١ .

(٢٢) نفس المرجع السابق ذكره ، ص ١٥٤ .

(٢٣) نفس المرجع السابق ذكره ، ص ص ١٥٤ – ١٥٥ .
وبالنسبة لمقولة كراهية الفيلسوف للحياة ، قرأت للفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي في مطلع كتابه رحلة الحور والنور واصفاً نفسه : " أنه شخص احترقت أنفاسه بلهيب القلق ، وغمر حياته الحزن ، وألمّ به الهمّ إلى حد أن تاقت نفسه إلى عبير الموت ، الذي رأى فيه شوبنهور أعظم بركة ونعمة للناس " .
انظر مقالنا " رحلة الحور والنور " عبد الرحمن بدوي يتحدث عن نفسه " الكتاب التذكاري لعبد الرحمن بدوي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٧ .

(٢٤) بالنسبة للنساء الفيلسوفات فالإشارة إليهم قليلة جداً في تأريخ الفلسفة ، وأن ما سُجل عن بعضهن لم يتضمن فكراً فلسفياً عن المرأة (في حدود علمي) ، على عكس النساء الأنثروبولوجيات اللاتي تتزايد أعدادهن باضطراد ، ولهن اهتمامات كبيرة بدراسات المرأة .

(٢٥) تشير بعض الدراسات عن المنازعات الزوجية في بلد مثل بنغلادش أن هذه المنازعات تؤدي في بعض الحالات إلى الوفاة ، وتشير الإحصائيات أن حوالي ٦٪ من وفيات الأمهات خلال عشرة أعوام تمتد بين عامي ١٩٧٦ و١٩٨٦ كانت نتيجة ضرب الأزواج لزوجاتهم . فأما الدراسات الأمريكية فتبين أن المرأة التي يطولها العنف المنزلي تتعرض للانتحار أو محاولة

الانتحار خمسة أضعاف ما تتعرض له النساء الأخريات ، وأن نفس الشيء يحدث في العلاج الطبي ، فالمضروبات والمعتدى عليهن يحتجن إلى فرص علاج تعادل خمسة أضعاف ما تحتاج إليه نساء أخريات لا يتعرضن للعنف . (نساء ورجال ، فصل في كتاب أرقام تصنع العالم، محمود المراغي ، كتاب العربي ، أبريل ١٩٩٨ ، ص ٤٠) .

(٢٦) لايقتصر أمر الاغتصاب على المرأة الأمريكية بطبيعة الحال ، فمركز حوادث الاغتصاب في بانكوك يسجل إصابة حوالي ١٠٪ من المترددات عليه بمرض نقص المناعة (الإيدز) .

(٢٧) تتباين مطالب الحركات النسائية من دولة إلى أخرى ، فمطالب المرأة الأمريكية غير المرأة الفرنسية مثلاً ، كما أن المرأة العربية لاتصل مطالبها إلى حد التماثل مع المرأة الغربية بصفة عامة لاعتبارات تاريخية ودينية .
ليس هذا فحسب ، فهناك من الكاتبات الفرنسيات المتحررات من ترى أن الحركات النسائية تسيء إلى مشاعر المرأة وعزّة الرجل كما أنها قد تعزز الشعور العدائي بين الجنسين . نجد أيضاً أن من بين الكتاب الفرنسيين أصحاب الأفكار المتحررة أعداءً للمرأة . فالكاتب المتحرر " هنري دومونترلان " Henry de Monterlant مثلاً يذم دائماً المرأة أو يجرحها في رواياته ، ويخرج من الخاص (أي بطلة الرواية) ليعمم حكمه على النساء كافة ، كقوله : " لايجد من النساء أي شيء يستحق الفهم " . ويفعل الكاتب جان باروا Jean Barios نفس الشيء من التعميم ، فهو لا يكتفي بالحكم على زوجته البطل في روايته واسمها " لوسيل " Lucil بضيق التفكير والجهل ، وإنما يقول عن النساء جُملةً : " النساء دون الرجال أبداً . حساسيتهن

المفرطة كالدود الذي ينخر الفاكهة . تلك الحساسية تأتي على كل ملكاتهن فتقتل فيهن الذكاء وتعطل القلوب " . لمزيد من التفاصيل انظر مقال غيث جاسر ، مرجع سبق ذكره حاشية رقم (٢٠) .

(٢٨) انظر مقال محمد الرميحي . خطاب مفتوح إلى النساء العربيات ، مجلة العربي ، أغسطس ، ١٩٨٥ ، ص ص ٨ – ١٦

(٢٩) انظر مقال سعاد المانع " كتابة المرأة : القصة وهواجس المرأة ، المنشور بمجلة قوافل ، العدد الرابع ، ١٩٩٥ ، ص ٢٠ .

(٣٠) منى أبو سنة ، نقد عقل المرأة ، دار قباء ، القاهرة ١٩٩٧ .

(٣١) انظر الفصل رقم ١٩ من المرجع التالي :

Jessie Bernard. The Female World. The Free Press : New York 1992.

(٣٢) نفس المرجع السابق ، ص ٤٥٩ .

(٣٣)

The Futurist. Women Preferred Future. May - June Issue, 1997.